الاغتراب العصرى

للنشاط الإنسانى ثلاثة مجالات ، هى بحسب الأصل متداخلة متبادلة متصاعدة ، لكنها فى حقيقة الواقع الحالى ، متفاصلة متعازلة متهابطة . فمتى يبدأ الوعى بالفرد يدرك حاجاته المادية ، مثل ضرورة الغذاء والشراب والإفراز وحماية جسده من الأذى ، وما إلى ذلك . وقد تستبد به هذه الحاجات بصورة شديدة وملحة ، لا قبل له بدفعها أو منعها أو التحكم فيها ، فإذا بها تهيمن على كل منشاطه وتسيطر على كل دوافعه ، فلا يكاد يحس غيرها أو يدرك ما سواها . وإذا ما أمكن إشباع الحاجات المادية بطريقة معقولة ، أو استطاع الفرد أن يحكمها أو يضبطها ، انتقل إلى المجال الثانى ، ألا وهو الرغبات النفسية . فالفرد لا يكون متوازنا إلا إذا حقق رغباته النفسية إلى جانب إشباع حاجاته المادية . ذلك بأن الطبيعة الإنسانية توجد فى الفرد ميولا قوية لأن يشعر بالاحترام الاجتماعى والارتواء العاطفى ، وبأن وجوده ضرورة له ولغيره ، وأنه ليس نهبا لعُقد النّقص أو مركبّات الاستعلاء .. إلى ما ماثل ذلك . وهو لابد أن يسعى إلى تحقيق رغباته النفسية تلك على نحو أو آخر ؛ يختلف من شخص إلى شخص ، ويتغير من وقت إلى وقت . وبعد الحاجات المادية والرغبات النفسية ، إن أشبعت

أو حُققت ، أو تمت السيطرة عليها . وصل الفرد إلى المجال الثالث ، وهو إطلاق التشوقات الروحية ؛ فالفرد يظل دائما حبيس جسده سجين حواسه ، لا يحرره من هذا الأسر ولا يطلقه من ذلك القسر ، إلا أن يترك تشوقاته الروحية تنمو وتسمو حتى تحيط بالكون وتصل إلى الجلالة .

هذه هى المجالات الطبيعية والنفسية والكونية للذات الإنسانية . غير أن الأمور فى واقع الحال لا تسير سهلة طلقة عبر هذه المجالات ، لتهب الإنسان صحة نفسية واستواء اجتماعيا وطلاقة روحية ، إذ الغالب أنها تتعثر وتقف بالفرد داخل نطاق المجال الأول حيث تسيطر عليه الحاجات المادية بشكل يحصره داخل جسده ويسخر كل جهوده لتحقيق هذه الحاجات ، حتى لا يكاد يشعر بغيره شعورا حقيقيا ، بل ينصرف جهده إلى استغلال هذا الغير لتلبية احتياجاته هو . وإذا حدث وانتقل الفرد إلى المجال الثانى — وهو المجال الاجتماعى — فإن الراجح أن يستخدمه فى تنفيذ مآربه وإشباع حاجاته المادية أو إطفاء رغباته النفسية ؛ ولا يتحقق ذلك تماما إلا فى المجتمعات الصغيرة المحدودة المنغلقة ، كمجتمع القرية .

فى القرية لا يوجد فرد وإنما توجد جماعة (أمة بالمعنى اللغوى الأصلى الذى يعنى الجماعة الصغيرة) ؛ ولا تنشأ فردية بل جماعية ، ولا تتحقق خصوصية لأن وضعية القرية تؤكد المشاعية .

فى أمة (جماعة) القرية تتكون الشخصية من خلال الالتصاق الشديد بالغير ، فيمنعها ذلك من أى بروز أو اختلاف ، ومن ثم تكون جميع الشخصيات مسطّحة ، أو أدنى إلى ذلك ، متشابهة متماثلة ، كأنها خرجت من قالب واحد أو نتجت عن آلة (ماكينة) بعينها . وفى نطاق هذه الجماعة (الأمة) يصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، اتخاذ قرار فردى ، إذ تكون القرارات دائما شبه جماعية ، لا يُضطر فرد إلى اتخاذها وتحمل المسئولية عنها ، وإنما تصدر القرارات عن جماعة ، إمّا أن تكون الأسرة أو تكون الأمة (الجماعة) كلها أو أن يوكل أمرها إلى شيخ الجماعة أو أن يُفوض فيها رجل الدين سواء كان كاهنا أم قسا أم شيخا ، غالبا ما يُعلن الركون إلى مصدر غيبى يستلهم منه الصواب . ونتيجة لذلك فإن المسئولية عن القرارات والأعمال تكون أيضا جماعية ، تنزل بالأمة كلها أو تُعاقب الجماعة بأسرها . والأخلاق فى هذا المناخ ، لا تنشأ من داخل الذات ولا تنبع من صميم الضمير ، لكنها تنتج عن الضغط الاجتماعى Social Pressure (وهو أمر عمّمه عالم الاجتماع الشهير إميل دور كايم على الأخلاق عموما ، مع أن ذلك ليس صحيحا على إطلاقه) . فالفرد فى القرية ، أو الجماعة (الأمة) يضع نصب عينيه فى كل ما يفعل نتيجة الأثر الاجتماعى لفعله ، بل إن الضغط الاجتماعى يشكل سلوكياته ويقولب أعماله على نحو محدد يجعل منها نمطا عاما متشابها مع غيره متماثلا مع من سواه ، حتى ليُظن أنها أخلاقيات

في حين أنها مجرد سلوكيات ومحض مواضعات ؛ ذلك بأن الأخلاق الحقيقية هى التى تنبع من داخل الذات ، وتصدر عن إرادة حرة واعية ، وتختار من بين بدائل مطروحة ومعروضة (وليست مفترضة) ؛ ثم تتحمل نتيجة اختيارها وخلاصة عملها بشجاعة وصلابة . ومن سلوكيات القرية ومواضعات الجماعة (الأمة) أن تنتشر أساليب التكافل الفردى والتواسى الشخصى والمشاركات الوجدانية . فالناس فى هذه الأجواء لابد أن تتكافل فيما بينها على المستوى الفردى ، لأن المياسير إذ تعطى للمعاسير إنما تكتسب – فضلا عن الثواب الدينى – اعتبارا ملحوظا بين الجماعة ؛ كما أن المُعوزين إذ يحمدون على القادرين يستشعرون الركون على حماية اجتماعية لا تتركهم دون عناية وبغير رعاية . والناس حين تتشارك وجدانيا أو ماليا ، وحين تتواسى نفسيا أو ماديا ، فهى تفعل ذلك لأن ما يصيب الفرد منهم من أفراح أو أتراح يمتد إليهم جميعا ويؤثر فيهم كلهم على نحو أو آخر ، هذا فضلا عن أن المشاركة والمواساة تعتبر بمثابة جُعل (أجر أو قسط) التأمين يدفعه الفرد (أو العائلة) للغير فى ظروف الشدة ليحصل عليه عندما تدور به الدوائر أو تدول به الأيام ، فيحدث له ترحٌ أو يقع عنده فرح . ولا شك أن الكثيرين لاحظوا ، فى مجتمع القرية المنغلق ، حتى ولو سكن المدينة ، كيف يحسب الناس ما لديهم عند الغير من جعال (وهو النقوط فى اللغة العربية واللهجة الدارجة) ويتوقعون ردّه فى مناسبات مماثلة ، بل وقد

يحدث خلاف كبير وتقع جرائم عدة ، عند الامتناع عن هذا الرد فى حينه .

الفرد الذى يعيش فى المجتمع المنغلق (مجتمع القرية المعزولة أو الأمة بالمعنى اللغوى الأصلى الذى يدل على الجماعة الصغيرة Comunity) قد يشعر (هذا الفرد) بالهدوء والأمن . لكن هذا الأمن غير طبيعى وذلك الهدوء غير حقيقى ، لأنه يصدر عن تغييب الذات وعن نفى الشخصية وعن إسقاط مُكنة (قدرة) الخيار وعن افتقاد الوعى الأخلاقى . إنه هدوء الموت وأمن السجين الذى أغلقت عليه زنزانة وأُلقى إليه طعامه وشرابه وعُزل عن العالم بأسره ، فأعطاه ذلك إحساسا كاذبا بالأمن والهدوء ، لأنه لا يفكر ولا يعمل ولا يتخذ قرارا .

فى الإسلام أن أمانة الكون التى أبت السماوات والأرض أن تحملها وأشفقت منها ثم حملها الإنسان ، هى حرية الاختيار : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال- فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان﴾ (سورة الأحزاب ٣٣ : ٧٢) . وفى المسيحية يقول السيد المسيح (بماذا ينتفع الإنسان إذا كسب العالم كله وخسر نفسه) ،(وماذا يعطى الإنسان فداء لنفسه) . إذن ، فأمانة الخلق وسر الحياة ورسالة الوجود أن يحمل الإنسان قدرة الاختيار بوعى وعلم ، بحيث يختار شخصيته وهى تنمو وتتضح من خلال الأحداث والأقوال والأفكار ، ويختار

أخلاقياته بعد أن يميز الخبيث من الطيب ، ويحدد الخير من الشر ، ليكون عين الطيّب وصميم الخير ؛ ثم يصبح مسئولا عن كل ما يفعل وعن كل مالا يفعل من خير بينما هو قادر على فعله ؛ وكذلك يركن إلى عمله أساسا ويعتمد على نفسه أصلا ، ثم يدرك أن التعاون مع المجتمع الإنسانى كله ضرورة حياة ولغة الوجود ، بحيث يوازن بين نفسه كشخص وبين المجتمع كله ككيان حيوى متكامل . بهذا ، وبهذا وحده ، يكون الإنسان قد حمل الأمانة ولم يجفل عنها أو يفر منها أو يتفسخ تحتها . وبهذا ، وبهذا وحده ، يكون الإنسان قد كسب نفسه وكسب العالم ، ولم يقبل عن نفسه أى فداء أو يضيّعها لقاء هباء .

مفاد ذلك أن يعمل الإنسان بوعى ودأب وعلم وقدرة على ذوتنة نفسه (أى أن يجعلها ذاتا فيما يسمى بالذاتية Identification) وأن يشخْصن وجوده (أى يجعله شخصية محددة Personalizing) ، وهو الأمر الذى يدفعه إليه واقع الحياة فى المدينة ، بعيدا عن المجتمع المنغلق أو الجماعة (الأمة) الصغيرة ؛ فضلا عن أنه الحقيقة التى لا مفر منها ولا معدى عنها للحياة فى الواقع العالمى المعاصر ، وإلا شعر الفرد بالاغتراب الشديد Alienation، وعانى جدب الوحدة ومرارة العزلة وقهر الهزيمة .

عندما ينتقل الفرد من المجتمع المنغلق ، مجتمع القرية ، أو الجماعة الصغيرة (الأمة) ، إلى مجتمع المدينة المفتوح أو إلى

المجتمع العالمى المنفتح الذى صار قرية الكترونية وأصبح شاشة تليفزيونية ، فإنه يصاب بما يمكن أن يسمى صدمة الذوتنة أو صدمة الشخصنة ، حيث يجد نفسه فردا بذاته وبشخصه أمام عالم مترامى ليست له حدود ، وواقع متدفق ليست له نهاية ، وحياة متجددة ليس فيها ركود .

وعلى الرغم من الاعتقاد السائد بأن هذه الحياة طارئة على الطبيعة وغريبة عن الإنسان ، فإنها هى الأصل وهى الأساس الذى توارى أحقابا طويلة من التاريخ فى المجتمعات المنغلقة الراكدة الساكنة ، ثم ظهر وانتشر وساد ليقدم أساليب جديدة للحياة ، ويوطد معايير حديثة للوجود . فالإنسان فى حقيقة الحال يولد وحيدا ويعيش وحيدا ويموت وحيدا . ومهما كان حوله من ناس وهو يكافح ويعانى ويكابد ، فإنه – لو تمعن نفسه واستبطن ذاته – يدرك أنه وحيد مفرد . وفى القرآن أن الإنسان يأتى الله فردا ، بلا أهل ولا حاشية ولا أصدقاء ولا مال ولا غيره : ﴿وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾ (سورة مريم ١٩ : ٩٥) ، ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ (سورة الأنعام ٦ : ٩٤) . فإذا كان الإنسان يُخلق فردا ثم يكون فى الحياة الآخرة فردا ، فإن الفردية تكون هى الأصل فى الخليقة وهى الحقيقة فى الحياة وهى الأساس فى الوجود ، وكل ما عدا ذلك عارض لا دوام له وطارئ لا قرار فيه .

الفردية فى هذا السياق لا تفيد المعنى الشائه الذى يختلط

بالأنانية ويضطرب بالنرجسية ، لكنه يرمى إلى المعنى السامى الذى قصد إليه القرآن والذى عناه السيد المسيح ، وهو ما يفيد الذوتنة أى إبراز الذات ، أو الشخصنة أى تأكيد الشخصية ، بغير تحيّف على الغير ودون تكبر على الناس ولا تجبّر فى التصرف ؛ وهو الأمر الذى لا يكون إلا إذا تنبه الإنسان إلى ذاته عن بصر وبصيرة وراقب شخصه عن وعى وبيّنة .

ففى المجتمعات المفتوحة كالمدينة أو المنفتحة كالعالم ، تتكون شخصية الفرد دون أى التصاق شديد بغيره كما يحدث فى الجماعات المنغلقة ، فلا تصبح مسطحة ، متماثلة متشابهة مع غيرها تمام المماثلة وكامل المشابهة ، بل إنها تنمو وقد تنضج من خلال الواقع ، سواء كان النمو صحيحا أم فاسدا ، بصورة توجِد فيها بروزات ونتوءات ، هى بصمات الذات وسمات الشخصية . ولدى التعامل مع الغير يحدث احتكاك للبروزات عند هذا مع البروزات عند ذاك ، كما يقع اعتراك للنتوءات عند فرد بالنتوءات عند الآخر ، وهو ما يجعل الحياة حلبة من الصراع المستمر وساحة من العراك الدائم ، مما يدعو البعض إلى لعن الأسلوب المعاصر للحياة والترحم على الأيام الخوالى ، أيام الحياة فى القرية أو المجتمع الصغير المنغلق ، أو يدفع البعض إلى الدعوة إلى هجرة الحياة المعاصرة جميعا والعودة إلى حياة بُدائية بدوية أو قروية . وإذ كان هذا الأمر أو ذاك من الاستحالة بمكان ، فإن من يحاول أن يشرع فيه

(لاستحالة وقوعه) فإنه يقترف جريمة الانتحار الاجتماعى الذى يعدمه وجوديا ويدمّر مجتمعه حضاريا . والذى يؤكد استحالة وقوع مثل هذه الهجرة إلى مواضى الزمن وبوادى الحياة وقفار الواقع ، إن الذى يدعو إليها يريد لها أن تتحقق ضمن كل نتاج الحضارة من كهرباء وماء نقى متواصل ومذياع وتلفاز ودواء وقطار وسيارات .. إلى غير ذلك ، وهى معادلة مستحيلة ، ذلك بأن مجرد وجود نواتج الحضارة – ناهيك عن استعمالها – لابد أن يحدث تغييرا كيفيا فى كل عناصر الحياة وكل خلايا الوجود ، إما أن يتكيف معه الفرد وإما أن تطحنه عجلة الحياة الجارية وتلفظه حركة الوجود المستمرة .

وفى الحياة المعاصرة لابد أن يتخذ الفرد قرارات متتالية متواصلة مستمرة كل يوم فى حياته ، بل وبالنسبة لبعض الناس ، فى كل لحظة منها ، إما فى حياته الشخصية أو فى حياته العائلية أو فى حياته العامة . وهو لابد أن يعود نفسه على اتخاذ القرار بحكمة وسرعة ، لأن كثيرا من المواقف لا يحتمل التأجيل ولا يطيق التسويف . ومهما حاول الفرد أن يتنصّل من اتخاذ القرارات فإن الظروف لابد أن تحيط به والوقائع لا شك تطبق عليه ، حتى تجبره على اتخاذ قرار ، إن لم يتأهل له ويتأهب لإبرامه ، صدر عفويا أو حدث عشوائيا ، يضره كثيرا وقد لا يفيده ولو قليلا .

ولأن الفرد أدرى من الجميع بكل ظروفه وأحواله وأعلمهم بدوافعه وكوامنه ، فإن رأى الغير ممن يشير عليه قد يفيده فى اتخاذ القرار ، لكنه لا يغنيه عن أن يأخذ هذا القرار بنفسه ، وأن يتحمل وحده كل نتائجه سواء فى الدنيا أم فى الآخرة .

اتخاذ القرار ، عاديا كان أو مصيريا ، ضرب من المكابدة والمجاهدة والمعاناة والمقاساة . ذلك أمر قرار واحد ، فما البال عندما يجد الفرد نفسه وهو مضطر لأن يتخذ القرار تلو القرار بعد القرار إثر القرار ؟ معنى هذا أن تكون حياته مكابدة مستمرة ومجاهدة متتالية ومعاناة متصلة ومقاساة متتابعة . وهذا ما لا يتحمله البعض أو لم يعتدْ عليه فإذا به يشعر بالشقاء من جراء ذلك ويتجرع الأسى نتيجة له ، ومن ثم يبحث عن وسيلة يظن أنها تريحه وتهدئ من حاله ، فيعمد إلى اتباع رأى شخص آخر أو مؤسسة معينة ، ويسقط خياره إلا فى التافه من الأمور والدارج من الوقائع ، التى ربما كان القرار فيها اتباعا لعادات سابقة أو انتهاجا لتقاليد سالفة . وعندما يتخفف هذا الفرد من عناء اتخاذ القرار ، يشعر بما يقول إنه راحة نفس وسكون بال ، وهى فى الحقيقة راحة العدم وسكون الموت . فإذا كان الجسد يقوى وينمو بالغذاء والشراب الصحيح فإن قوة الروح ونموّها لا يكون إلا بالمعاناة والمقاساة والمكابدة والمجاهدة . ومن يغفل غذاء الروح ويعرض عنه تفتر روحه وتضمر ثم تنتهى إلى العدم ، فيعيش عيش الدواب ويتحرك حركة الأدوات والآلات ؛ ويصبح فى ميزان الحياة صفرا ،

كما يكون فى الحياة الآخرة هباء . إن جوهر الحياة ليس فى الوصول إلى مال أو إلى منصب أو إلى شهرة ، لكن جوهر الحياة يكمن فى الصراع المستمر والكفاح الدائم من أجل الوصول إلى هدف سام ، وغرض يعلو على كل الأغراض ، وهذا ما يتحقق تماما من خلال المعاناة والمقاساة والمكابدة والمجاهدة ، فى اتخاذ القرار تلو القرار بعد القرار إثر القرار .

فى الحياة المعاصرة ، ضمن المجتمعات المنفتحة والمدن الكبيرة ، لابد أن يتغير أساس النظام الأخلاقى ، فلا يقف عند حد تشكّله وفقا للضغوط الاجتماعية ، وإنما يعود إلى الأصل حيث ينبع هذا النظام من ضمير الإنسان ويصدر عن ضمير الكون . ففى المجتمع المغلق ، مجتمع الجماعة الصغيرة (أو الأمة بالمعنى الأصلى للفظ) تنشأ الأخلاق وتنتشر نتيجة الضغط الاجتماعى (الذى يتمثل فى كلمات مثل العيب والمحظور والممنوع .. إلى آخر ذلك) . ويعيب هذا الأسلوب أنه لا يُوجد أخلاقا Ethics لكنه يعوّد سلوكا Behaviour ؛ وفارق كبير بين الأخلاقيات وهى فى الأصل قيم روحية ، وبين السلوكيات وهى فى الحقيقة تصرفات مادية . هذا فضلا عن أن من شأن السلوكيات – التى لا تنبع من ضمير سليم – أنه يمكن التّملص منها باستثناءات أو بتبريرات أو بتخريجات ، ويشهد التاريخ على أن كثيرا من القادة الذين بشروا بما قالوا إنها نظم أخلاقية – وهى فى الحقيقة سلوكيات مادية وتنظيمات اجتماعية – كانوا أول من ضربوا بها عُرض الحائط وتخلصوا

منها ، وزعموا أنهم استثناء من القاعدة وأن ما يفعلونه هو من امتيازاتهم . يضاف إلى ذلك أن الأخلاق التى تنشأ نتيجة الضغوط الاجتماعية (والتى هى فى حقيقتها سلوكيات) تأخذ دائما شكلا خاصا بأعراف العُصبة (جماعة من الناس) فتقتصر على أفراد العصبة وحدهم ، وتنفى من دائرتها أى فرد غيرهم . والنظام الأخلاقى السليم ، النابع من ضمير الإنسان والصادر عن ضمير الكون ، لا يقتصر على عصبة ولا ينحصر فى مكان ولا ينحسر عن البشرية ، وإنما هو النظام الذى يمتد إلى كل أفراد البشرية فلا يستثنى منها ولو فردا واحدا ؛ ذلك بأن استثناء فرد واحد من النظام الأخلاقى يعنى أن يعامله غيره ، فرْدا كان أم عصبة ، بغير أخلاق ، وهو ما يسقطه ويسقطهم فى هاوية اللا أخلاقيات ، ويرميه ويرميهم فى ساحقة الشرور . وإذ يبدأ الأمر بنفى فرد واحد من النظام الأخلاقى ومعاملته بلا أخلاق ، فإن الوضع يتزايد ويتكاثر ، واحدا بعد واحد ، وجماعة إثر جماعة ، حتى ينتهى الحال بنفى النظام الأخلاقى بأكمله (وهو فى الحقيقة سلوكيات) والتعامل مع الجميع بلا أخلاقية وبشرور وآثام ، حتى تصبح هذه هى السلوكيات المعتبرة التى تقوض أى سلوكيات أخرى .

فى النظام العصرى يتجاوز التكافل بين الناس نطاق الحسنات والصدقات التى لا ترتب التزاما ولا تحقق دواما . وفى النظم السليمة لابد أن تستبدل بالحسنة والصدقة نظم أخرى أصح وأصوب وألزم وأدوم ، هى نظام معاش البطالة والتأمين الاجتماعى والتأمين

الصحى ومعاش التقاعد ، كما لابد من تشجيع الإنتاج الأسرى البسيط والادّخار بكافة سبله .

إذن ، فالانتقال من مجتمع القرية المنغلق أو من الجماعة (أو الأمة) إلى مجتمع المدينة المفتوح والمجتمع العالمى المنفتح يؤدى إلى صدمة شديدة ، هى صدمة الذوتنة أو صدمة الشخصنة ، حيث يجد الإنسان نفسه فردا وحيدا ، عليه أن يلحظ بوعى وعلم نمو شخصيته ونضجها ، وأن يدرك ضرورة وجود نتوءات فيها وبروزات بها ، تنم عن سماته الشخصية وتدل على صفاته الذاتية ، وتميزه عن غيره كما تفرقه عمن سواه ؛ ومن ثم فعليه أن يتنبه إلى وجود نتوءات وبروزات مخالفة فى كل شخصية يتعامل معها ، فيوجد كل منهما مجالا هادئا للتعامل والتوافق الصحيح ، دون احتكاك للبروزات أو اصطدام للنتوءات . وفى النظام الحياتى الجديد يلتزم الإنسان اتخاذ القرارات بنفسه ، عن بصر وبصيرة ، وأن يتحمل مسئوليتها فى الدنيا ويؤمن بأنه سوف يتحمل نتيجتها فى الآخرة . ويؤدى ذلك إلى أن يغير الفرد محور أخلاقياته وأساس وجودها بحيث لا تكون مجرد سلوكيات ناشئة عن الضغط الاجتماعى وإنما تصبح نظاما أخلاقيا شاملا متكاملا إنسانيا ، ينبع من ضمير الإنسان ويصدر عن ضمير الكون ، ليمتد إلى جميع البشر فى كل أنحاء المعمورة ، بل وإلى كل الخليقة ، بصرف النظر عن اختلافات اللون والجنس

واللغة والعقيـدة ، دون استثناء ولو فرد واحد من هذا النظام الأخلاقى ، لأن معاملة فرد واحد بلا أخـلاق تحطم النظـام الأخـلاقى وتدفع إلى التعامل مع الجميع بلا أخلاق وبالشر والإثم .

هذه الصدمة الطبيعية لم يدركها الكثيرون ، بل ولم يدركها بعض العلماء ، فأخذوا النظام الاجتماعى الجديد بمعايير النظم الاجتماعية القديمة ، ولم يحللوا المسألة تحليلا علميا اجتماعيا سليما ويضعوا أمام الناس حلولا صحيحة سديدة ، أو اقتراحات عملية مقبولة ، فنتج عن ذلك أن أثرت الصدمة على أغلب الناس فصاروا يشعرون بالاغتراب Alienation فى الحياة المعاصرة ، وأصبح الفرد يعيش مُغتربا Alien مهما كان لديه من مال أو سلطة أو حاشية أو عائلة ؛ ذلك بأن صميم الاغتراب يكمن فى الطبيعة الإنسانية نفسها ، وكانت الحياة البُدائية – بدوية أو قروية – قد أخفته تحت طبقة من الغبار الكثيف الذى أصاب الناس بالخِدْر فغيب فيهم الوعى وأسقط منهم إرادة الاختيار وحولهم إلى وضع السلوكيات بدلا من النظام الأخلاقى الإنسانى والكونى . وقد أثر هذا الخلط والتخليط على عالم اجتماع شهير مثل إميل دوركايم فعمم ولم يخصص ، وانتهى – كما فعل غيره – إلى أن النظام الأخلاقى بأسره ، فى كل زمان وفى أى مكان ، هو ناتج الضغوط

الاجتماعية ، وهو تقدير لا يفرق بين السلوكيات والأخلاقيات ، ويبرز علميا حالات السقوط الأخلاقى والتدنى اللا إنسانى .

فى الأثر الدينى أن الإنسان غريب فى هذا العالم ، لأنه ليس عالمه الأصلى والدائم ، وإنما هو عالم عارض زائل ؛ وهو معنى يفيد بوضوح وقطع أن الإنسان الحق لابد أن يشعر بالاغتراب فى هذا العالم الدنيوى ، وأنه إن لم يشعر بذلك يكون قد وقع فى خدْر اجتماعى وراح فى غفوة غير طبيعية . وقد عمدت كثير من الأفكار الإصلاحية والثورات الروحية إلى أن تُفيق الناس من الخدْر وأن توقظهم من الغفلة ، لكن ذلك لم يؤت ثمارا ناضجة وفيرة ، لغيبة الأساس العلمى عن الناس وافتقار الظروف الاجتماعية إلى تقديم العناصر اللازمة لإثبات ذلك ، والتصرف السليم إزاء الواقع الكونى . لكن ظروف الحياة المعاصرة ، رغم ما بها من سلبيات ، قد أكدت وكرّست مفهوم الاغتراب ، وبينت أن الوعى (بالحياة) غُربة كما كان يقول الصوفية المسلمون من أن (المعرفة غربة) . الغربة بهذا المعنى ليست مفهوما سلبيا ولا هى مدلول سيئ ، لكنها واقع صحى ، لو أنه عومل بوعى وعلم لأدّى إلى نتائج مهمة أولها أن تكون لكل فرد ذاتية خاصة وشخصية مميزة ، وأن يعمل بفهم وقدرة على التفاهم والتعامل والتعاون مع غيره فى سلاسة ويسر تتجاوز كل خلاف

فى الذوات وتتعدى أى تغاير فى الشخصيات ، وأن يعتاد الفرد اتخاذ قراراته بنفسه فى كل أمور الحياة وشئون العمل ووقائع المعاملات وأحكام الأخلاقيات . ومع ذلك ، وقبله ، أن يعرف ويمارس نظاما أخلاقيا سليما ، نابعا من ضمير الإنسان وصادرا عن ضمير الكون ، يمتد إلى كل البشر ، وينتشر إلى كل الخليقة ، دون أن يستثنى منه ولو فردا واحدا ، بسبب أى خلاف فى الرأى أو اللون أو الجنس أو اللغة أو المعتقد .

هذا هو الاغتراب العصرى ، إنه فى حقيقته واقع كونى وحقيقة إنسانية ، غير أن الفهم والوعى والعلم والعمل يتحول به إلى قوة دافعة للإنسان وقوة خلاقة للإنسانية .

وما لم يحدث ذلك فسوف يؤدى الاغتراب إلى أن يعانى الفرد جدب الوحدة ومرارة العزلة وقهر الهزيمة ، أو أن يلجأ إلى مخدِّر اجتماعى أو يندفع إلى انتحار فردى وجماعى .